

السيد المبارز

لقد آن لنا أن نتجه إلى أعداء العرب في الشمال، وقد ذكرنا آنفًا ما كان من أمر «بلاى»، وكيف أنه جمع ما بقى من القوط في كهفه الذى لا ينال، ومعقله بصخرة جبال (أستورياس)، وكيف أن هذه الفئة القليلة اجتازت بعد قليل حدودها، وشجعها على التحدى والنضال ما شجر من الخلاف بين قبائل البربر، الذى انتهى بهزيمتهم عند الحدود الشمالية للدولة العربية.

جدد شىء من ذلك الحياة فى هذه الفئة وقوى من عزمها، فاستعادت بالتدريج أكثر الأراضى التى فى شمال جبال وادى الرمل، وأسست مملكة ليون، ومقاطعة قشتالة، وكانت مملكة نافار تبعد نحو الشرق عند سفح جبال ألبرت (البرانس)، وذكرنا أيضًا كيف أن هذه الممالك المسيحية كانت فى حرب مستمرة مع جيرانها المسلمين، وأنه كان فى باب الظن أن تكون هذه الحروب خطرًا على العرب، لولا ذلك الانقسام المستمر والخلف الدائم بين المسيحيين، مما حمل بعض ملوكهم أن يلتزم الحيطة ويتجنب القتال، وكان من السهل اليسير على المسلمين أن يصونوا دولتهم مهيبة عزيزة الجانب، لو بقيت مملكة قرطبة قوية غير متفرقة الأهواء.

ولكن حينما سقطت قرطبة، وأصبحت الأندلس نهبًا مقسمًا

بين ملوك الطوائف الذين لم يفكروا إلا في أنفسهم أولاً، ثم - إذا دعت الحال في المملكة الإسلامية - تجرأ النصارى وتمكنوا من أن يستعيدوا من العرب عدداً غير قليل من البلدان، وقد شهدنا كيف أن النصارى زحفوا على أرض المسلمين بجيوشهم المظفرة، وضربوا الإتاوات على أعظم ملوكهم، حينما ازداد الاضطراب وعمت الفوضى في القرن الحادى عشر، وأصبح لكل مدينة دولة ولكل دولة أمير ووزراء ... فى هذا الوقت جمع فرديناند الأول القسم الأعظم من الشمال تحت رايته، فألف بين الولايتين المتعاديتين؛ ليون، وقشتالة، وأضاف إلى ملكه: أستورياس، وغاليسية، وكان فى هذا الحين أقوى ملك بإسبانيا جميعها، وقد ضم إلى مملكته مدن البرتغال: لورميجو، وبازو، وقلمرية، وأخذ الإتاوات من ملوك سرقسطة، وطليلة، وبطليوس، وإشبيلية.

نعم إن رأيه السقيم فى تقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة وبنتيه جر على الشمال بعد موته ويلات متصلة الحلقات من الحروب الأهلية، ولكن ألفونسو السادس «الشجاع» تمكن فى النهاية من ضم أشقات المملكة فانتعشت القوى المسيحية، وأصبح تغلبها على أعدائها من الحتم المحقق.

ولم يمنع المسيحيين من قهر الأندلس واستردادها فى هذا الحين الذى ضعفت فيه العرب إلا ما كان يبعث به إليهم ملوك الطوائف من الرشا التى تأبى على الحصر ليشقروا بها كفهم أو عونهم،

والأما ما كان يظهر فى الأفق البعيد من جيوش المرابطين، وعلى أية حال لم يكن ملوك الطوائف حكاماً مستقلين، لأنهم وقعوا بين شقى رحا: من الخوف من ألفونسو، ثم من الخوف مما هو أعظم خطراً من ألفونسو، وهو تغلب حلفائهم المرابطين، ولكنهم فى النهاية اضطروا إلى اللجوء إلى المرابطين.

ويظهر لنا فى هذا الوقت تدخل النصارى فى أكثر شئون المسلمين السياسية، ونرى التحالف بين الفريقين مشتبك العرا، وأن كثيراً من جنود النصارى المرتزقة كانوا ينضمون إلى جيوش العرب فى حروب مدمرة للولايات المسيحية، وأن كثيراً من العرب كانوا يعينون جيوش النصارى على إخوانهم المسلمين...

وقد نخطئ خطأ بالغاً إذا قدرنا لجنود ليون وقشتالة منزلة تقرب من المثل الأعلى للبطولة والفروسية، وأكبر فى باب الخطأ أن نتخيلهم رجالاً مهذبين مثقفين. فإن نصارى الشمال كانوا من كل وجه على النقيض من منافسيهم العرب، لأن العرب - وإن قدموا الأندلس فى جفوة طبائع القبائل وخشونتها - رقت أخلاقهم بالاختلاط بالأندلسيين وبميلهم الطبيعى إلى المرح والتطرف، فوصلوا إلى قمة المدنية وأغرموا بالشعر والأدب وتجردوا لطلب العلم، وأحبوا فوق ذلك أن يتمتعوا بكل لذائذ الحياة. وقد كان ذوقهم العقلى والأدبى مرهفاً دقيقاً، وكان لهم ذلك الإحساس الذى لا يشعر به من نشأ نشأة سامية فى العلم والأدب، وقد كانوا واسعى

التصور خياليين شعريين مفكرين، يمنحون من المال على مقطوعة شعرية رائعة، ما يكفي للإنفاق على فرقة من الجنود. وكانوا ينظرون باحتقار إلى أقوى ملوكهم وأشدهم بطشاً إذا لم يكن شاعراً، أو لم يوهب له ذوق فهم الفكاهة الشعرية والبلاغة العربية. ومنح هؤلاء القوم البارعون استعداداً طبيعياً في الموسيقى، والخطابة، ودقائق العلوم، والنقد، وإدراك التوريات البعيدة التي نعدها اليوم من ميزات الأمة الفرنسية.

أما نصارى الشمال، فكانوا على خلاف من ذلك بقدر ما يتصور العقل من خلاف، كانوا في بداوة الأمم الناشئة على الرغم من أنهم أخلاف أمة قديمة، فكانوا جفاة غير مثقفين، وقليل من أمرائهم من كان له حظ من مبادئ العلم، وكانوا من الفقر وعسر الحال أعجز من أن يتمتعوا بفنون الرفه التي يتمتع بها أمراء العرب، غير أنهم كانوا رجال حرب وجلاد، لا يقل نزوعهم إلى القتال عن نزوع أعدائهم المسلمين، وقد يفوقون هؤلاء في استعدادهم للنضال واحتمالهم الحرب الطويلة الأمد، وجرأتهم اليانسة المستميتة.

لقد كانوا رجال سيف ليس غير، وطالما دفعهم الفقر وحفزتهم الحاجة إلى خدمة أي إنسان كيفما كان، فكانوا يبيعون شجاعتهم لمن يدفع أعلى ثمن، لأنهم يحاربون ليعيشوا، وتاريخ القرن الحادى عشر لإسبانيا مملوء بالوقائع التي حارب فيها أبطال النصارى تحت راية المسلمين، ولكن ليس بين هؤلاء الأبطال من نال شهرة السيد بطل إسبانيا.

هذا السيد هو لذريق البيفارى، وقد سماه أتباعه من العرب بالسيد، وكان من أسمائه أيضاً: الكمبيدور ومعناها: البطل، أو المبارز المتحدى، لأن شجاعته الفائقة فى الحروب جعلته المبارز المشهود له بالسبق فى المبارزات التى كانت تسبق التحام الجيشين.

ولم يكن أحد أبعد شهرة وأكثر انتصاراً فى المبارزات من لذريق، أو سيدى القنبطور «كما كان يحلو لأحد قدامى المؤرخين أن يدعوه» ومن السهل الهين أن نميز الصحيح مما شاع من الروايات عن ضروب شجاعة السيد وإقدامه، التى امتلأ بها تاريخه العجيب.

وأكثر ما حبب السيد إلى نفوس القشتاليين، عزوفه عن طاعة الملك ألفونسو وإن عد ذلك مدون سيرته عيباً يحط من بطولته، فإن صاحب هذه السيرة، أو المعين على جمعها، وهو ألفونسو العالم، لم يستطع أن يتجاوز عن صلف السيد وتحديه لسلفه ألفونسو السادس. لذلك نلاحظ فى ترجمة سودى^(١) لسيرة السيد - وهى غنية باستشهادات كثيرة من قصيدة السيد وغيرها - وقوفاً مقصوداً عن الاسترسال فى الإطراء، وكبحاً فجائياً لجماح الأناشيد والقصص الموغلة فى الملق والمديح، وبهذه السيرة إسهاب كثير فيما لا يشرف السيد، أو يربأ به عن المذمة، غير أنها تصور أخلاق البطولة الحققة بما فيها من خير وشر، وتعرض صورة شائقة عجيبة لهذا العصر المضطرب، ومثالا رائعاً لهذا الفارس المعلم بين الفرسان الإسبانيين.

(١) روبرت سودى: شاعر، كاتب، أديب إنجليزى، مات سنة ١٨٤٣.

ولو قصدنا إلى سرد قصة السيد كاملة ملأنا بها مجلدًا ضخماً، لذلك نرى من الخير أن نقصر عنان القلم على اقتطاف بعض فقرات من سيرته. ولسنا نعلم شيئاً عن بطلنا في أيام صباه. والذي نعلمه عنه: أن أول ورود لاسمه في التاريخ كان في سنة ١٠٦٤ حينما فاز بلقب المبارز، لانتصاره في مبارزة على أحد فرسان نافار، وأنه عين إثر ذلك قائداً لجنود قشتالة، وكان فوق العشرين بقليل، ثم نعلم أنه ساعد سانشو أمير قشتالة على قهر أخيه، بمفاجأة فيها كثير من معاني الغدر والخيانة، وإن عدت من الحيل الحربية في هذا الزمن الجافى الخشن. وبعد أن قتل بليدو سانشو عند أسوار زمورة، لحق السيد بخدمة خلفه، وهو ألفونسو نفسه، الذي كان السيد سبباً في نفيه بعد انتصار أخيه سانشو عليه. وقد أحسن ألفونسو أول الأمر لقاء فارس قشتالة المظفر في قصره، وزوجه بنت عمه، ولكن حساد السيد ملئوا صدر ألفونسو بالسخائم والحقده عليه، ولم يكن منه سليم دواعى الصدر، فنفاه من مملكته سنة ١٠٨١ م / ٤٧٤ هـ وتقص علينا سيرته ما أصابه بعد ذلك فتقول:

«وبعث السيد إلى أصحابه وأقاربه وخدمه، وأخبرهم بما آل إليه حاله، وما كان من أمر الملك بنفيه، ثم سأل عمن يريد منهم أن يتبعه في منفاه، وعمن يريد منهم أن يقيم، فاتجه إليه الفار فانز «البرهانس» وهو من أبناء عمومته، قائلاً: «إننا أيها السيد سنتبعك جميعاً حيثما ذهبت، ولن نخفر لك عهداً... إننا سنسير معك في

البدو وفي الحضرة، وسنبذل في خدمتك بغالنا، وخيولنا، وأموالنا، وثيابنا إن شئت، وسنبقى لك أوفياء مخلصين مدى الحياة». وأيد جميعهم مقالة الفارفانز فشكر لهم السيد عطفهم ومحبتهم ثم قال: إن الفلك يدور، وإن الأيام قد تمكنه من توفية جزائهم.

«وعند رحيله أخذ يتلفت إلى داره، فغلبه الدمع وصاح: هذا من عمل أعدائي، فالحمد لله على السراء والضراء، وزاد من شجونه أن رأى بهوه قفراً، وصناديقه مبعثرة، وأبوابه مفتحة، ومشاجبه ملقاة على الأرض، ومقاعد فناء الدار وقد رفعت، والقصور التي كانت تعلو قممها وقد طارت، ثم اتجه إلى الشرق وسجد وهو يتمتم: مريم ... مريم ... أيتها الأم المقدسة ... ويا أيها القديسون جميعاً، توسلوا إلى ربي أن يهب لي القوة لاستئصال الوثنيين، وأن يمنحني من غنائمهم ما يقدرني على مكافأة إخواني هؤلاء، ومكافأة كل من يتبعني ويعينني، ثم دعا الفارفانز وقال له: يا ابن العم ... إن الأمة المسكينة لم يكن لها يد فيما رزأنا به الملك، فاعمل على ألا يصاب أحد منها بسوء في أثناء الطريق ... ثم دعا بفرسه، وكانت امرأة عجوز واقفة عند باب دارها، فمذراته أجهشت بالبكاء وقالت: ارحل على الطائر الميمون أيها السيد، وانهب من الغنائم ما شئت، وبعد سماع هذه الوصية الغالية، ركب جواده وقال: أيها الأصدقاء. إننا سنعود بمشيئة الله إلى قشتالة متوجين

بالشرف، فائزين بالغنم الكثير. وعند رحيلهم من بيفار^(١)، رأوا غرابًا سانحًا، فلما وصلوا إلى برغش رأوا غرابًا بارحًا.

«ولما دخل برغش كان برفقته ستون رجلا، فهرع الرجال والنساء لمشاهدته عن بعد وهم حذرون، وأطل كثير من منافذ دورهم باكين محسورين، وصاحوا بصوت واحد: سبحان الله!! سبحان الله!! يا له من خادم كريم لو ظفر بسيد كريم!! وتمنوا أن يضيفوه فى دورهم. ولكنهم لم يجرعوا، لأن ألفونسو فى حدة غضبه أرسل رسائل إلى أهل برغش يحذرهم فيها من إيواء السيد، وينذر من يخالفه بمصادرة أمواله وسمل عينيه، واستولى الحزن والهم على النصرارى حينما شاهدوا هذه المرزأة من بعيد، وأخذوا يختفون حينما قرب السيد منهم، لأنهم كانوا يحذرون مشافهته والقرب منه. فذهب السيد إلى «بوسادا» وهو الخان الذى كان ينزل به، فرأى صاحب الخان قد أسرع بإغلاق بابه خوفاً من الملك، وعندما صاح رجاله بأبى المثوى أن يفتح الباب لم يجيبهم أحد، فقرب السيد من الخان، وخلع قدمه من الركاب، وضرب الباب بها فلم يفتح، لأنه كان وثيق الغلق، وعندئذ خرجت فتاة صغيرة فى التاسعة من إحدى الدور وقالت: أيها السيد... لقد نهانا الملك أن نؤويك فلم نستطع أن نفتح أبوابنا لاستقبالك، ولو فعلنا لفقدنا دورنا،

(١) اسم قصر السيد.

وأموالنا، وأعيننا التي فى رءوسنا ... أيها السيد، إن مصيبتنا
بأيوائك لن تساعدك، ولكن الله وجميع القديسين معك.

«وعندما علم السيد بما أمر الملك به، لوى عنان جواده نحو
كنيسة سنت ماري، وهناك ترجل وسجد، وصلى بقلب خافق
يفيىض رهبة وخشوعاً، ثم ركب ثانية وغادر المدينة. حتى إذا كان
غير بعيد من نهر أرلنسون عرس ودق أطنابه فوق الرمال، لأن أحداً
لم يقبل أن يضيفه، فأقام بين أنصاره وصحبه كما لو كان مقيماً بين
الجبال التي خلت من دبيب الحياة.

«وأذنت الديكة بأصواتها الندية، وبدت تباشير الصباح عندما
وصل السيد إلى دير سنت بدرو، وكان إذ ذاك راهب الدير الدون
سسبيوتو يؤدى صلاة الفجر، ومعه الدونة شيمانة زوج السيد فى
خمس من وصائفها النبيلات، يدعون الله والقديس بطرس أن يعين
السيد ويشد أزره، فلما سمع الراهب صوت البطل لدى الباب كان
سروره عظيماً، فخرج هو ومن معه إليه يحملون المشاعل والشموع،
وحمد الراهب الله أن متعه بلقائه، وأخذ السيد يقص عليه كل ما
حدث له، وما رماه به الملك من النفى والاضطهاد، ثم منحه لنفسه
خمسين ديناراً، وأعطاه مائة دينار لزوجته وبنتيها وقال: أيها
الراهب. إنى أكل إلى رعايتك بنتى هاتين، بعد أن أتركهما ورائى،
فاخفض لهما جناح الرحمة، واعطف على زوجى ووصيفاتها، فإذا
نفد هذا المال فأنفق عليهن سخياً مبسوط اليد، فإن كل دينار يصرف

عليهم سيرد إلى الدير أربعة دنانير، فوعده الراهب بأنه سيفعل ما يؤمر بمشيئة الله، ثم تقدمت شيمانة إلى زوجها وهي تحمل طفلتيها، كل طفلة فوق ذراع، وجثت أمامه على ركبتيها وهي تبكى بكاءً شديداً، وتومئ إلى يديه بالتقبيل، ثم قالت: انظر الآن ما كيف نبت بك بلادك وشممت بك الأعداء والحاسدون، وانظر الآن ما صار إليه أمرى وأمر بنتى الصغيرتين، وكيف حكم علينا بالفراق ونحن أحياء؟! أقسم عليك بحق مريم إلا ما أخبرتنى عما أفعل!! فحمل السيد طفلتيه فوق ذراعيه وضمهما إلى قلبه، وانتحب طويلاً، لأنه كان شديد الحب لهما، وقال: إني سأحيا بمشيئة الله ومشية السيدة مريم حتى أزوج ابنتى هاتين، وحتى أقوم بشرف خدمتك أيتها الزوج النبيلة التى أحببتها كنفسى. وأقاموا فى هذا الدير وليمة للبطل الكريم، وصدحت أجراس الدير برنات البهجة والسرور.

ومضت ستة أيام من المهلة التى منحها ألفونسو إياه لمغادرة البلاد، وبقى منها ثلاثة.

«وكان ألفونسو صلب العود عنيداً، فلو أنه بقى فى المملكة بعد انتهاء المهلة يوماً واحداً، ما استطاع أن ينقذه من برائنه ذهب ولافضة، وفى هذا اليوم أولم مع أصحابه، ثم وزع عليهم فى المساء كل ما يملك، فأعطى كل رجل على قدر منزلته، ثم أمرهم أن يتلاقوا بالدير عند صلاة الفجر ليرحلوا معاً، وقبل أن يصيح الديك كانوا قد

أخذوا أهبتهم واجتمعوا بالدير، فأدى بهم الراهب الصلاة حتى إذا انفتلوا منها أعدوا خيلهم للرحيل، وهنا أخذ السيد يعانق شيمانة وبنتيه ويدعو لهن، وكان فراقه لهن أشبه بنزع الظفر من لحم الأنامل، وعند مغادرة الدير طفق يبكي ويكثر من التلفت وترديد الزفرات، فقرب منه الفارافانز وقال: أين شجاعتك أيها السيد؟! لقد ولدت سعيد الطالع مجدوداً!! فكر الآن في سفرنا، واعلم أن هذه الأحزان ستنقلب في يوم سعادة وسروراً».

عرض السيد نفسه على أمير سرقسطة^(١)، وكان أقوى ملوك المسلمين في الشمال، فرحب به وبرجاله وضمهم إلى جيشه. ومن هناك قاد السيد أتباعه إلى غارة بأراغون، وكانوا قد شغفوا به ورأوا الغنم في متابعته، وكان سريع الضربة في هذه الغارة خفيف الخطأ، حتى لقد قطع مسافات بعيدة في خمسة أيام، وفر بغنائمه قبل أن يشعر النصارى بمقدمه، ثم قاد العرب لمحاربة كونت برشلونة ففاز فوزاً مبيئاً، حتى اضطر الكونت إلى محالفته.

وأعظم أعمال السيد تغلبه على بلنسية. وقصة ذلك: أن أمير سرقسطة ندبه لحماية أمير بلنسية، بعد أن اضطرب بها حبل السياسة، وتفاقمت الأمور، فدخل المدينة أول ما دخلها مسالماً. والسيرة تقول:

(١) هو أحمد بن سليمان بن هود الملقب بالمقتدر.

«فذهب السيد إلى بلنسية، واستقبله الأمير يحيى بن ذى النون أحسن استقبال، وعقد معه ميثاقاً تعهد فيه: أن يمنحه كل أسبوع أربعة آلاف مرابطة^(١) لقاء إخضاع أهل الحصن لطاعته، حتى يؤدوا إليه الإتاوة التى كانوا يؤدونها لأسلافه من أمراء بلنسية، وعلى أن يحميه السيد من العرب والنصارى، وأن يتخذ بلنسية منزلاً له ومقاماً، وأن يجلب إليها ما يسطو عليه من الغنائم لبيعه بها، وأن يتخذ بها أهراءه، وقد دون هذا الميثاق حتى يكون حجة لكليهما، فأرسل السيد إلى من بالحصن يأمرهم أن يؤدوا الإتاوة إلى أمير بلنسية كما كانوا يفعلون من قبل، فقبلوا طائعين وتسابقوا إلى مرضاته».

ومذ ظفر السيد بهذا المنصب، شرع يقود جيوشه المظفرة إلى الممالك المصاغبة «فحارب دانية، وشاطبة، وقام بها فى أثناء الشتاء مدمراً عاتياً فلم يدع حجراً على حجر من أريولة إلى شاطبة، وكان يبيع غنائمه وأسراه ببلنسية».

وفقد السيد سيطرته على بلنسية حيناً من الدهر فى أثناء هذه الحروب والغارات: ذلك أن ألفونسو سنة ١٠٨٩ م / ٤٨٢ هـ عاد فرضى عنه ومنحه حصوناً، وأقره على جميع ما استولى عليه فى غزواته، وبهذا الإقرار أصبح السيد أميراً مستقلاً، غير أنه لم يمض من الزمن إلا قليلاً حتى عاد الملك إلى الشك فى أمره والأخذ فيه بالشبهة،

(١) أصغر قطعة نحاسية بإسبانيا، وهى أقل من الفاردينج الذى يقرب من المليم، وفى الحلل السندسية: أن أمير بلنسية كان يمنحه عشرة آلاف دينار فى كل شهر.

فاقتنص فرصة غيبته بالشمال وأسرع فحاصر بلنسية. وحينما علم الكمبيدور بذلك اشتعل غضباً، ووجه انتقامه إلى مقاطعات ألفونسو، فدمر بالسيف والنار نافار، وقلهرة، وترك حصن لوكرنى دكاً. وجاء فى بعض المدونات اللاتينية القديمة: «وَعَاثَ فِي الْأَرْضِ جِبَارًا نَهَابًا ثُمَّ غَادَرَهَا قَفْرًا يَبَابًا، بَعْدَ أَنْ احْتَجَنَ خَيْرَاتِهَا» فاضطر ألفونسو إلى رفع الحصار عن بلنسية، وعاد مسرعاً لإنقاذ مملكته، ولكن السيد بعد أن نال مأربه من غزو ممالك ألفونسو، سلك سبيلاً أخرى إلى بلنسية، فوجد أبوابها مغلقة دونه.

ومن ذلك الحين ابتدأ ذلك الحصار التاريخي الذى لبث تسعة أشهر، لاقى فيها أهل بلنسية الشدائد والمحن، فاشتد بهم الجوع والظمأ، كل هذا والسيد ورجاله محيطون بأسوارهم بقلوب أشد صلابة من هذه الأسوار، لم تنفذ إليها الرحمة، ولم تعرف فى الحرب ليناً ولا رفقاً، وآض أهل بلنسية فى هذا الحصار القاتل أشباحاً هزيلة، خائرة القوى، أخذ منها السغب وأنهكتها المخمصة، وكان إذا وثب أحدهم من السور أو ألقاه أهل المدينة لأنه لا غناء فيه ولا معونة عنده، تلقفته سيوف أتباع السيد، أو أبقت عليه فبيع كما تباع العبيد، ويقول مؤرخو العرب: إن السيد أحرق كثيراً من هؤلاء أحياء. وتوجز سيرته فى وصف هذا الحصار فتقول ولم يبق بالمدينة طعام يباع، وأصبح الناس بها يترنحون بين أمواج الموت، وكثير منهم من سقط فى الطرق ميتاً».

وسلمت المدينة فى يونيه سنة ١٠٩٤ م / ٤٨٧ هـ حين يئست من المقاومة، وحين لم يبق لها فى قوس الصبر منزع، ووقف السيد مرة أخرى فوق حصونها وأسوارها مؤزراً منتصراً، ثم أملى على أهل بلنسية شروطاً قاسية، وطرد كثيراً منهم من المدينة لتخلو أمكنتهم للقشتاليين، وفى الحق إن السيد كان جافياً فى معاملة المغلوبين أشد الجفوة ناكثاً بعهده. ولكنه لم يندس انتصاره بحصد الأرواح وذبح من فى المدينة كما كان يفعل كثير فى هذا الزمان، نعم، إن من السكان من فقدوا ما يملكون، ولكنهم جميعاً نجوا بحياتهم، ولم يقتل إلا قوادهم^(١). وأرسل السيد يستقدم زوجه وبنتيه من الدير، ودعا بنفسه ملكاً على بلنسية، وحامياً للممالك حولها، وضرب إتاوات فادحة على جيرانه حتى بلغ دخله فى السنة من بلنسية وحدها مائة وعشرين ألف دينار، ووصل إلى عشرة آلاف من ابن رزين صاحب السهلة، ومثلها من أمير البنت، وإلى ستة آلاف من أمير مريبطر، وهكذا... وخيلت له الأحلام أن يسترد الأندلس كلها، فقد قال: إن لذريق خسر إسبانيا وسيعيدها لذريق آخر. وحين حاربه المرابطون شتت جمعهم، وبدد شملهم فى معركة حامية.

ولكن الحظوظ تتقلب فى الحروب، وكما تكون الأيام لك تكون عليك، فقد هزم المرابطون جنود السيد فى النهاية، فمات حزناً وغماً

(١) لأنه بعد أن عاهد القاضى أبا أحمد بن جحاف حاكم بلنسية أحرقه بالنار.

فى يوليه سنة ١٠٩٩ م / ٤٩٣ هـ وحين مات حنطوا جثته وأقاموا بجانبها حراساً، ثم أنفذوا ما أوصى به - كما تقول الأشعار القصصية - فأقعدوه على جواده الكريم بابيكا، وأحكموا شدة السرج، فجلس عليه معتدل القامة، لم يظهر بوجهه أثر الموت، وقد أبرقت عيناه الشهلوان، وأرسلت لحيته إلى صدره، وقبضت يده على سيفه الأمين «تيزونة» فبدا كأنه حى لا يتطرق فى ذلك شك لرائيه، ثم أخذوا بلجام فرسه وخرجوا من المدينة يتقدمهم بيرو برميودز وهو يحمل علم السيد ومعه خمسمائة فارس لحراسته، وسارت خلفه شيمانة فى صويحباتها وحاشيتها، فأخذوا طريقهم بين العرب المحاصرين للمدينة، ويمموا شطر قشتالة، وتركوا العرب فى دهشة وعجب من هذا الرحيل الغريب، لأنه لم يخطر لهم ببال أن السيد ميت لا يرجى. ولما وصلوا إلى دير سانت بدور، أجلسوا السيد على كرسى من العاج إلى جانب المذبح تحت ظلة وضعوا فوقها رنوك قشتالة، وليون، ونافار، وأراغون، ورنك الكمبيدور نفسه، وبقي السيد نفسه جالساً إلى جانب المذبح عشرين، كان وجهه فى أثنائها هادئاً نبيلاً، حتى إذا تغلبت آثار الموت على الصناعة والتحنيط دفنوه أمام المذبح، وأبقوه فى قبره جالساً كما كان على الكرسى العاجى، مرتدياً ملابسه الملكية وسيفه تيزونة فى يده، ولا تزال درقة السيد المحفورة بالزخارف وعلم انتصاره معلقين على قبره يفيضان أسى وحرناً.